كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية

المادة: نظرية الأجناس الأدبية

المستوى: الثانية ليسانس دراسات أدبية

المحاضرة: الثالثة:

الأجناس الشعرية

1-الشعر الملحمي (المفهوم والنشأة)

تمهيد

"الملحمة هي التاريخ على أعتاب الأسطورة'

(فيكتور هيجو)

يمثل الشعر الملحمي أول شكل من أشكال الأدب الإغريقي، وتعد الملاحم من أقدم الأعمال الشعرية التي عرفها تاريخ الأدب، وتشير كثير من الدراسات حول تاريخ الأدب إلى أن نشأتها ترتبط بالبيئات الساذجة البسيطة التي تؤمن بالقوى الخارقة ومدى تحكمها في مصائر الناس، فهي: قصائد سردية مطولة، تحكي في معظمها الأعمال البطولية للكائنات السماوية أو الأرضية

1. مفهوم الملحمة

1. 1. الملحمة لغة:

الملحمة في معاجم اللغة العربية: الموقعة العظيمة القتل وقيل موضع القتال وألحمت القوم إذا قتلتهم حتى صاروا لحما...وقيل الحرب ذات القتل الشديد...[1]، ومنها تلاحم القوم إذا تقاتلوا، ويدل مصدرها أيضا على معنى (الإحكام) فيقال لحم الأمر، أي أحكمه، وألحم الشعر أي نظمه فهو ملحم، والقصيدة ملحمة إذا كانت مترابطة محكمة.[2]

1. 2 الملحمة اصطلاحا:

[1] ابن منظور، لسان العرب، مادة لحم، ج13، دار صادر بيروت، ط1، 2000، ص182

[2] ينظر: محفوظ كحوال، الأجناس الأدبية، نوميديا للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2007، ص167

حاول كثير من الدارسين تعريف الملحمة، وقدموا بذلك مفاهيم عديدة، تتقارب إلى حد كبير، فقد ورد في كتاب النقد الأدبي الحديث أن الملحمة: "قصة شعرية موضوعها وقائع الأبطال الوطنيين العجيبة التي تبوئهم منزلة الخلود بين بني وطنهم، ويلعب الخيال فيها دورا كبيرا، إذ هي تحكي على شكل معجزات ما قام به هؤلاء الأبطال وما به سمو عن الناس."[3]

وهذه القصة الشعرية القومية، البطولية، الخارقة، هي مزيج من الحقيقة والخيال أو كما قال عنها فكتور هيجو: هي التاريخ على أعتاب الأسطورة.[4]

وتتسم الملحمة بنزعتها الإنسانية الرفيعة وهدفها القومي الجليل، وكثيرا ما يكون في أصل القصص الملحمي حدث تاريخي قديم، يطوّر مضخما، ويعبّر به عن الآمال القومية الواسعة، والأهداف الاجتماعية النبيلة.

وهكذا ففي الملحمة قصص متعدد الأجزاء، موحد الهدف، وفيها تاريخ قديم ينبع من صميم الحياة في اهتزازات عزتها الأولى؛ وفيها بطولة تتجلى في المواقع الحربية؛ وفيها خوارق ترفع الأحداث إلى جو الأساطير، وترفع البطل إلى المثالية العليا التي تجتمع فيها آمال الأمة.

كما أن القصص في الملحمة لا يخلو من أوصاف، وحوارات، وخطب ومن استدارات قد تطول أحيانا. والبارز في الملحمة كما يقول الناقد غنيمي هلال، عنصر القصة، حيث يورد:"عنصر القصة واضح في الملحمة، فالحوادث تتوالى متمشية مع التطورات النفسية التي يستلزمها تسلسل الأحداث، ولكل ملحمة أصل تاريخي صدرت عنه بعد أن حرفت تحريفا يتفق وجو الخيال في الملحمة، وهي محكية لشعب يخلط بين الحقيقة والتاريخ، مما يسيغ أن تحدث خوارق العادات، وأن يتراءى الإنس والجن أو الآلهة والأبطال فيها يمثلون جنسهم وعصرهم ومدينتهم[5]

وهذه الخصائص وغيرها جعلت أحداثها تتسم بالغرابة والسحر والبعد عن المألوف والواقع، لذا نجدها تزدهر أكثر لدى الشعوب التي تؤمن بالخوارق والأساطير وهو أمر يفترض قدم ما تحكي من قصص، فهي تساعدهم على ترسيخ تخيلاتهم واعتقاداتهم الوهمية.

2 . أنواع الملاحم: الملحمة نوعان: الملحمة الفطرية والملحمة الطبيعية[6]

---

[3] محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1997، ص90

[4] ينظر المرجع السابق، ص نفسها

[5] محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص 182

[6] محفوظ كجوال، الأجناس الأدبية، ص167 وما بعدها

. الملحمة الطبيعية:

تلقائية تنشأ عفويا في بداوة الشعوب، يشترك في إنشائها الشعب كله، تكون في بداية الأمر حكاية على ألسنة عامة الناس، ثم تصير هذه الحكايات ملهمة للشعراء فتتفتق قرائحهم، وتصير ملاحم شعرية كما هو الشأن بالنسبة لـ: إلياذة هوميروس وسيرة عنتره؛ أي أنها تظهر على ألسنة الشعب متسلسلة متضخمة، وتسير في طريق نموها إلى أن يتاح لها قلم شاعر موهوب يجمع شتاتها، ويخرجها إخراجا فنيا ممتعا.

. الملحمة العلمية المصطنعة:

تظهر متأخرة في حياة الأمم والشعوب، وهي من عمل شاعر واحد، تخلو من صدق العاطفة وحرارتها وعاطفتها أقل حرارة من الملحمة الطبيعية.

-الملاحم في الأدبين الأجنبي والعربي

1. الملحمة في الآداب الأجنبية:

الشعر الملحمي من الأجناس الأدبية القديمة، عرف في بادئ الأمر لدى اليونانيين، وكان وسيلتهم الوحيدة لتسجيل الأحداث التاريخية والقومية. وقد أحاط الغموض والشك حول نشأة شعر الملاحم، وهناك من شكك حتى في وجود هوميروس، ونسبوا الملاحم، إلى كتاب شعبيين مجهولين، عاشوا في عصور مختلفة.

والإلياذة والأوديسا هما تقريبا النصان الملحميان الكاملان المتبقيان من نصوص الملاحم الإغريقية القديمة، ولا يمكن فهم الملحمة كجنس أدبي إلا بالاطلاع عليهما، كونهما اللبنتين الأساسيتين اللتين انطلقت منهما بقية الملاحم عبر العصور المختلفة[7].

وهذا ما يؤكده الباحث نبيل راغب في كتابه الموسوم بـ: فنون الأدب العالمي، حيث أنه عدّ أعمال الشاعر الإغريقي هوميروس من أولى القصائد الملحمية التي عرفها التاريخ في مجال هذا النوع الأدبي، ولقد كتب هذا الأخير الإلياذة التي أصبحت بعد ذلك النموذج الأصل للفن"[8]

. الإلياذة والأوديسا:

---

[7] محفوظ كحوال، الأجناس الأدبية، ص168

[8] نبيل راغب، فنون الأدب العالمي، الشركة المصرية العالمية للنشر والتوزيع، لونجمان 1996، ص35

الإلياذة: وتعني أغنية اليونان، واليونان كان يطلق عليها آنفا طروادة والإلياذة اسم مأخوذ من كلمة (إليون) أحد أسماء مدينة طروادة.

تتغنى الإلياذة بأبطالها وأمجادها. وتقع هذه الملحمة في أربعة وعشرين نشيدا، يشتمل كل واحد منها على 500أو 700 بيت شعري، وبالتالي يكون مجموع أبياتها حوالي ستة عشر ألف بيت، وهي

تقص أحداث السنة الأخيرة من الحرب الضروس التي قامت بين الإغريقيين الأوربيين وأهل طروادة في حصارهم الشهير، وكان سبب هذه الحرب اختطاف هيلانة زوجة "منيلاوس" ملك مدينة طيبة من طرف باريس أحد أمراء طروادة، ودام حصار طروادة عشر سنوات وكانت نهاية هذه الملحمة مفتوحة[9]

أما **الأوديسا:** وسميت باسم بطلها الإغريقي(Odusseus)وهو (Ulysses) وتتحدث عن عودته من حرب طروادة وعن الأهوال والمشاق التي كابدها، وذلك بعد انتهاء الحرب بعشر سنين، وتستغرق حوادث الملحمة ستة أسابيع، وقد رجع كل من بقوا على قيد الحياة بعد معركة طروادة، ومن لم يرجع فهو في عداد الأموات إلا (أوديسوس) فقد منعته الآلهة كاليبسو(Calypso) من مغادرة جزيرة (أوجوجيا) Ogugia مدة سبع سنوات.

تصور الأوديسا تنافس أمراء (أتيكا) من أجل الظفر بـ (بينيلوب)، لكنها صمدت وكانت ترفض كل من يفكر بالظفر بها، بحجة أنها مشغولة بنسج كفن والد زوجها أوديسيوس واسمه (لايرتس)، بيد أنها كانت تفسد ليلا غزلها الذي حاكته نهارا، ويذهب (تليماخوس) ابن (اوديسيوس)، يبحث عن أبيه مسائلا العائدين من حرب طروادة، ولكنه لا يحقق فائدة، وتدبر له مكيدة حتى لا يعود، بيد أن الإله (زيوس) يصدر أمرا لإطلاق سراح أوديسيوس وعند عودته تصادفه أهوال كثيرة قبل اطلاق سراحه، وبعده ويقص هذه الأهوال على (الكينوس) حاكم جزيرة سخرية، وهي جزيرة أسطورية، فيساعده هذا الحاكم على العودة بإهدائه سفينة توصله إلى جزيرة (أتيكا) التي يصلها متنكرا في زي متسول، يتعرف على ابنه ثم أبيه (لايرتيس) ويظفر (ببنيلوب) زوجة، ويتحد مع والده لمحاربة الأعداء وتنتهي أحداث هذه الملحمة نهاية سعيدة بالانتصار على الأعداء[10]

الإنياذة:

تحسن الإشارة إلى تأثر الإغريق بأدب الملاحم اللاتيني، نظرا للدور الحضاري للأدب اللاتيني، إلا أن الفصل بين ما هو إغريقي، وما هو لاتيني من جهة أخر ليس كاملا، بل إنه يستعصي في غالب الأحيان

---

[9] ينظر: محفوظ كحوال، الأجناس الأدبية، ص168 وما بعدها
[10] ينظر: المرجع نفسه، ص169، 170

أن نفرق بين الجانبين، فهما حضارتان متكاملتان، ومن ثم يمكن اعتبار الأدب اللاتيني الوجه الثاني لعملة واحدة هي الأدب الكلاسيكي بصفة عامة. فالذي يقرأ الأدب الإغريقي لا يستطيع التوقف دون المضي إلى صفحات الأدب اللاتيني المكملة لصفحات الأدب الكلاسيكي.[11]

فقد انتقل جنس الملحمة بما يتسم به من خصائص من الأدب اليوناني إلى الأدب اللاتيني، إذ إن الرومانيين "حاكوا اليونانيين في الأجناس الأدبية التي نما بها أدبهم وازدهر، وبهذا الطابع في البطولة والأساطير، وعجائبها الوثنية الفطرية تأثر الشاعر اللاتيني فرجيل في ملحمته التي عنوانها الإلياذة.[12]

أعد فرجيلوس نفسه لصياغة رائعته، فهي تمثل ذروة انتاجه الشعري، وكان الرومان يعتبرون أن الشعر الملحمي هو أسمى ضروب الأدب على الرغم من أن هوراتيوس وبروبرتيوس تقاعسا عن التصدي لهذه المهمة، بحجة أنها أثقل من أن تحتملها كواهلهما[13] إلا أن فرجيلوس أقدم على ذلك حيث أورد أن أفكاره بدأت تتجه إلى الملحمة لولا أن أبولو رب الشعر أنّبه على ذلك:

"عندما حاولت أن أتغنى بالملوك والمعارك

شدني من أذني إله كنيثوس(أبوللو) ونصحني قائلا:

أي تيتيروس (Tityrus) قد يغذي الراعي غنمه لتسمن، ولكنه عندما يغني يشدو بأغنية رقيقة".[14]

استلهم فرجيلوس ملحمة الإنيادة من رائعة هوميروس الأوديسا، ويدور موضوعها حول مغامرات البطل (إنياس). مؤسس روما القديمة

وتتناول حيلة ملوك الإغريق عندما فشلوا في اقتحام مدينة طروادة، رغم عدتهم وعددهم، فصنعوا حصانا خشبيا ضخما، وتظاهروا بالانسحاب إلى سفنهم، فصدّق الطرواديون ما رأوه بأم أعينهم، وفكروا في ادخال ذلك الحصان إلى مدينتهم على أنه غنيمة كبرى، وكي تسهل عليه عملية إدخال الحصان إلى مدينتهم، عمدوا إلى تحطيم جزء كبير من سور المدينة المحصن، وهو الهدف الذي كان يسعى إلى تحقيقه ملوك اليونان. وما أن تم لهم إدخال الحصان إلى المدينة، وثب من داخله الجنود الذين كانوا وسطه، وهجموا على الحراس، وفتحوا أبواب السور العظيم...

---

[11] أحمد عثمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع141، ص8

[12] ينظر: محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة والنشر، ص125

[13] المرجع السابق، ص222، 223

[14] أحمد عثمان، الأدب اللاتيني، ص 223

هناك من يقسم الإنيادة إلى قسمين رئيسين: القسم الأول يضم الكتب الستة الأولى، والقسم الثاني يضم الستة الأخيرة. وهذان القسمان يقابلان على التوالي الأوديسا أي الرحلة في اتجاه الوطن الموعود. والإلياذة أي الحرب من أجل تأسيس الوطن الموعود.

وهناك من يقسمها إلى ثلاثة أقسام، يضم القسم الأول الكتب من الأول إلى الرابع، حيث يحتل موضوع قرطاجة مركز الصدارة، أما القسم الثاني فيضم الكتب من الخامس إلى الثامن، ويتحدث عن الاستعدادات للحرب بعد الوصول إلى (لاتيوم) أما القسم الثالث فيضم الكتب من التاسع إلى الثاني عشر وموضوعها المعركة الرئيسة في (لاتيوم)[15]

وعموما فالملحمة غنية بالأساطير الدينية والخوارق، قص فيها الشاعر ما خاضه (إينويوس) من معارك شرسة، أفضت إلى انتصاره على شراسة أعدائه، وكيف رحل في النهاية إلى العالم الآخر

. الملاحم الدينية

وهي ملاحم تتسم برمزيتها وببعدها الإنساني الهادف ومن هذه الملاحم الكوميديا الإلهية لدانتي[16]

. الكوميديا الإلهية(La divina commedia):

وهي للشاعر الإيطالي دانتي(1231.1265) وقد سميت بادئ الأمر الكوميديا، ثم أضاف لها صاحبها كلمة (الإلهية)، وهي تختلف كثيرا عن ملحمتي هوميروس، لأن موضوعها ديني صرف، عبر رحلة إلى العالم الآخر، وإن كان دانتي اجتهد في تقريب هذا العالم إلى العالم الواقعي زمن العصور الوسطى، بحروبه، وتقاليده، وأخطائه... والهدف من وراء (الكوميديا الإلهية) كما يذهب دانتي: هو حال الأرواح بعد الموت، وفي معناه الرمزي يعالج حجم هذا العالم الذي نجوبه، كأننا مسافرون...فموضوع هذا العمل الأدبي هو الإنسان بما فيه من فضائل ورذائل، بوصفه خاضعا للعدل الإلهي المثيب المعاقب

. الفردوس المفقود(The Paradise Lost):

وهي للشاعر الإنجليزي ملتون(1608 1674) وقد نشرت هذه الملحمة عام1667 ، وهي في 12 نشيدا تتحدث عن خروج آدم من الجنة عن طريق الإغواء والشخصية الأساسية في هذه الملحمة هي شخصية الشيطان المتمرد العاصي، واستعلائه الشيطان وتمرده في هذه الملحمة، أشياء غير ممقوتة من وجهة نظر دانتي.

---

[15]أحمد عثمان الأدب اللاتيني، ص227

[16] محفوظ كحوال، الأجناس الأدبية، ص171

ملحمة جلجامش

عرف الشرق القيم ملاحم شعرية فقد ظهرت في الهند القديمة ملحمتان هما (المهباراتا)و(الرمابانا) كما عرف شاهنامة الفردوسي الشاعر الفرسي الكبير وتتوفر هذه الملاحم على نفس الخصائص الموجودة في الإلياذة والأوديسا، أي أن كل ملحمة تتضمن قصة أو قصصا بطولية قائمة على خوارق الأمور والبطولات والأساطير والمعتقدات الدينية، فهي تولف بين الأساطير التاريخية وأحداث التاريخ الواقعي[17]

وتشير كثير من الدراسات التاريخية إلى أن أقدم أشكال الملاحم قد ازدهر بالشرق الأدنى، وتغنى بها السومريون القدماء خلال حروبهم الطويلة كملحمة جلجامش التي يعود تاريخها إلى أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد، وهذه الملحمة دلت على أنها كتبت في عصور متقدمة من التاريخ البشري، غرست المعارف وأوضحت المعالم عن حياة شعب كان يقيم فوق أرض العراق ما قبل تاريخنا بآلاف السنين...إنها تراث غني راق يحكي طفولة الشعب الأكادي البابلي، ويكشف عن حضارته المخبوءة التي طواها تباعد الأزمنة في بلاد م ابين النهرين[18]

تروي أحداثها حكاية ابن ملك أوروك المدعو جلجامش وابن الإلهة نينوس، الذي ضاق الناس من ظلمه وبطشه وعدم رحمته، فقد كان يفتك بالفتيان والشفتيات دون رحمة ويفرق بين المحبين وقد اشتكى الناس جوره لكبير الألهة، فطلب هذا الأخير من إلهة الخلق أنو أن ترسل من يقمعه ويحد من بطش المجنون

والملاحظ أن ملحمة جلجامش تلتقي مع الإلياذة والأوديسا في كثير من المحطات منها:

حادث الموت: تلتقي مع الإلياذة في حادث الموت الذي يقود الفعل الملحمي إلى الأمام فموت الصديق (باتروكلس) يفع أخيل إلى العودة إلى الحرب التي سبق وأن انسحب منها، ومت (أنخيدو) يدفع جلجامش إلى رحلة البحث عن الخلود.

الموضوع المشترك: وتلتقي ملحمة جلجامش مع الأوديسا في موضوع (مشترك) يتمثل في البحث عن الخبرة والتجربة.

البناء الفني: إضافة إلى التشابه في البناء الفني ذي الأسس الثلاثة: البطل والسفر والعودة بعد تشبع بالخبرة والتجربة.

---

[17] ينظر: محمد مندور، الأدب وفنونه، نهضة مصر لطباعة والنشر، ط5، 2005ص51

[18] شفيق البقاعي، الأنواع الأدبية (مذاهب ومدارس) مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص172

عالجت هذه الملحمة الخالدة عدة قضايا من بينها مشكلة الموت والحياة والخلود وقد مثلت ذلك الصراع الأزلي الذي يعبر عن تراجيديا الحياة

4. الشعر الملحمي عند العرب

المتتبع للشعر العربي، يجده خاليا من الشعر القصصي الذي يقوم بنظم الملاحم الطويلة، وذلك لأسباب كثيرة، منها أن الجاهلية، كانت بعيدة عن أن تفهم الوحدة القومية، والعاطفة الوطنية، تشغل أفكارها أمور وهمية ومشاهد خيالية لا توافق نزعتها الواقعية، وخوارق إلهية لا توافق ضعف عقيدتها الدينية؛ فهي ضعيفة العقيد– كما يرى بعض الباحثين – لا يربطها سلطان، ولا ينازعها أرضها أجنبي.

فضلا عن أن الحياة البدوية لم تكن لتأتلف مع الجيوش المنظمة والزحف بها جرارة، إذ كانت حروبهم غزوات وغارات. زد على ذلك كله ان لشاعر البدوي حر، متقلب قصير مدى الخيال والتخيل، لا يكاد يقوى على نظم قصيدة في موضوع واحد، فكيف يقوى على نظم ملحمة طويلة واسعة الأصول والفروع؟

ثم إنه كان ينظم عن دافع التأثر والعاطفة لا عن رغبة في الإخبار لأجل الإخبار البعيد عن الذات. فهو خطيب محام لا قصاص.

والبدوي لا ينظر إلى الأشياء نظرا شاملا بل تغلب عليه الفطرة. والطبع، فيقف عند كل ما يحركه من غير ما رابط بين السابق واللاحق ولا تتسلل، فقصر كل ذلك نفسه، فلم يأت بالقصائد الوافية.

وعندما تطور المجتمع العربي، في عهود ما بعد الجاهلية، انصرف الناس إلى العلوم، وانجرفوا في التيارات الفكرية، وتقيد الشعراء بعمود الشعر، يقلد بعضهم بعضا، واستمالتهم الصنعة أكثر مما استمالهم الابتكار الفني؛ ولهذا لم يجدوا أنفسهم في حاجة إلى الانطلاق في الأجواء التي انطلق فيها اليونان وغيرهم من الشعوب التي احتك العرب بحضارتها وثقافتها.

وإن خلا الأدب العربي من الملاحم، فإنه لا يخلو من قصائد فيها من النفس الملحمي الشيء الكثير، وفيها من سرد الأخبار ووقائع الحروب ما يذكر بأسلوب الملاحم؛ ومن ذلك بعض شعر عنترة وعمرو بن كلثوم والمتنبي وأبو تمام الطائي... وغيرهم وفي العصر الحديث ظهر شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا برائعته إلياذة الجزائر أو ملحمة الجزائر التي تمثل سجلا حافلا اختار له الشاعر الجزائر مطلع المعجزات وبدعة الفاطر وحكاية الحب وعروس الدنى.. المكان والإنسان والتاريخ والثقافة والدين

5–الخصائص العامة للملحمة:

يمكن إيجاز أهم خصائص الملحمة في النقاط الآتية:

-**الطول:** الملحمة تشبه كرة الثلج، تنطلق من فكرة بسيطة أو حدث صغير إلا أنها تنمو وتنقسم إلى مجموعة من القصص، يربط بينها الشاعر

-**الجذور التاريخية:** لكل ملحمة أصل تاريخي يتصل بالأساطير والخرافات، ويمتزج فيه الخيال بالواقع.

-**الموضوعية:** فالشاعر في الملحمة يتحدث عن بطولات الآخرين، ولا يتحدث عن نفسه، ولا يلمح آثره في الملحمة.

- **تعدد الموضوعات:** تتشعب الموضوعات المطروحة في الملحمة، نتيجة الاستطراد والخروج من موضوع لآخر.